البنيوية من أين وإلى أين ؟
(موقف من البنيوية)

لزرق جازية
المركز الجامعي تيسمسيلت

الملخّص:
يعالجُ هذا المقالُ موضوعا من أحدَثِ موضوعات الفلسفة والنقد الأدبي، وهي عنوانُ هذا البحث، إذ لم تكن البنيويةُ أبدا خلقا فجائيا، وإنما تحرّكٌ فكريٌّ امتدّتْ جذورُهُ في عمق التراث الفكري الغربي، الذي كان رافداً أساسياً في تشكيل فلسفاتِ الغرب ومناهجه المتعدّدة والمتنوعة.

ومن هنا كانت مرجعيةُ البنيوية تمثّل المنطلق الأساس للفهم السليم لهذه الظاهرة من جهة، والاطّلاع على المعادلة الحضارية التي يكون طرفُها الأساس هو التراث الفكري الإنساني كلّه، خاصة المنعطفات والأطوار الفكرية البارزة التي شكّلتْ جذور العلم الحديث .

البنيوية : المفهوم والمنهج :

تعدُّ البنيوية من أحدث الاتجاهات الفلسفية التي انتهى إليها الفكرُ الإنسانيُ بعد أن تعلّق طويلا باتجاهين: اتجاهٌ إلى الذات المشخّصة واعتبارها محور التأمل الفلسفي، واتجاهٌ آخرُ مضادّ، لا يعنى بغير الظواهر المحسوسة، ويؤدّي إلى ظهور الفلسفة الوضعية، ثم الوضعية المنطقية بصورها المتعددة. والأمر الذي يجب أن نشير إليه هو أنّ البنيوية تعدّ ثورة على كلا الاتجاهين، فهي لا تعنى بالفرد المشخص أو بـــ"الأنا" الذي يتغنى به الوجوديون، كما لا تعنى بـــ "نحن" التي يشتغل بها الاجتماعيون، ولا تَنصبُّ دراستها على العلاقات المحسوسة في المجتمعات أو بين الأفراد، بل هي تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ لأنها تريد الكشف عن باطن الظواهر أو البنية التي تؤسسها .

وعلى هذا الأساس يمكن العودة ببدايات التعريف بالبنيوية إلى الثورة المنهجية الجديدة التي دشّنها الشكلانيون الرّوس ودي سوسير، مرورا بحلقة براغ واللسانيات الأمريكية والبنيوية – التي استقام شأنها على اعتماد النموذج اللّساني معيارا لها في الوصف والتحليل، وصولا إلى السيميولوجيا التي أثرت الأزمة الداخلية في النموذج اللغوي الذي تبنته البنيوية، وانتهاء بالتفكيك الذي توّج اتجاهه بتجاوز المعيارية، مطوّرا السيميولوجيا

الى آفاق جديدة في الكشف والاكتشاف، واستكناه ما هو مغيّب في الخطاب الفلسفي والأدبي والتاريخي[1].

يُسمّي بعضُ النقّاد البنيوية بالثورة النظرية أو المنهجية، نظرا لأنها ليست سوى منهج من المناهج الحديثة التي برزت إثْرَ الثورة المنهجية الحديثة، ولأنها تؤمن باللغة وتثق فيها وفي إمكانية التحليل الموضوعي.

فالبنيويةُ قد أعادتْ الاعتبار للّغة، حيث لم تعد اللّغةُ وسيلة سلبية لنقل الأفكار والمفاهيم القبلية، وإنما هي الأساس الفاعل المنتج لهذه المفاهيم التي تنتقل بواسطتها. وفي الواقع فإنّ اللغة كانت ولا تزال تلعب الدور الحاسم في عمليات الوصف والنظر في منظومة الأفكار المتداخلة، وهذا الذي استفاده أنصارُ "ما بعد البنيوية"- ولا سيما التفكيكيون -، فهم يمشون على خطى أهل البنيوية ويركّزون على اللغة، باعتبارها وسيلة تواصلٍ هامة، وكونها تحدّد الفروض الدقيقة، وتصف البراهين والنتائج. فقد أضحت اللغةُ القدوةَ والنموذجَ لمختلف العلوم، وخاصّة الإنسانية منها.

والبنيويةُ منهجٌ بسط جناحيه خلال العقدين الماضيين من القرن العشرين على كثير من العلوم الإنسانية التقليدية ومجالات النشاط الانساني، وتمكّنتْ من التزاوج مع طرائق التفكير النقدية الأخرى، فتبلورت بنيوية شكلانية، وبنيوية نفسانية، وأخرى واقعية ماركسية، وبذلك فإنّ "البنيوية -وهي تقتحم منهجيا سبلَ المعرفة المعاصرة- كأنما وجدتْ نفسها في ظرف تاريخي محمولة حملا على أن تبلور لنفسها محتوى فكرياً، وعلى أن تقدّم نفسها كفلسفة مضادّة، وأن تنصّب في موقع النصّ بدلَ طريق الاسترسال"[2] .

البنيوية// الأصول (التفاعل والتثاقف) :

وعلى هذا الأساس، بات لزاما على الباحث العربي من أن يقف على المناهج أو المشاريع النقدية الحداثية بما فيها البنيوية وقفة جادّةً، تقوم على الحوار البنّاء، وتحمل على عاتقها مهمّة التوضيح المفهومي لا للبنيوية وحسب، بل لكثير من العلوم والمعارف التي تدخل مجال التقاضي، والتي يتعامل معها فكريا. وهذا لن يتحقّق إلاّ عن طريق ممارسة نقدية حقيقية للوقوف على كفاية هذه المناهج في حقولها.

وهذا العمل يقف بدوره وراء عملية إعادة النظر في العلاقات التي تربط الثقافة العربية بأصولها الموروثة من جهة، وبالثقافة الغربية من جهة ثانية، فهو يمثّل دعوة ملحّة للقضاء على ثقافة المطابقة(*) - بتعبير الدكتور عبد الله إبراهيم وبعض نقادنا المعاصرين- لما فيها من تبعية ورضوخ للغرب الذي أصبح حاضرا في ثقافتنا، ومُهيمناً على معطياتها، إذ "لا يمكن أن تكون معرفة الآخر معرفة مفيدة إلاّ إذا تمّ التفكير بها نقدياً، والاشتغال بها

بعيداً عن سيطرة مفاهيم الإذعان والولاء والتبعية، وبعيداً أيضاً عن أحاسيس الطهرانية الذاتية وتقديس الأنا"(3).

وهذا يعني أنه لابدّ من الوقوف وقفة حوارية حيال هذه المناهج الحديثة، وعدم الانبهار بها، وعدم مبايعتها على أنها الخلاص، بل ينبغي اعتبارها مساهمة جادّة يمكن التواصل معها بالتفاعل والمثاقفة والدرس الخصب. وهذا هو لبّ الممارسة النقدية التي تسعى إلى توسيع مجال الاختلاف، وتوفير إمكانية تتجاوز بها الثقافةُ العربيةُ عامّة ضروبَ التماثل والتطابق التي تعيق حركتها.

ويعرّف الدكتور سعد البازغي نوعية العلاقة بين الشرق والغرب قائلا: "إنه من الممكن وصف التفاعل مع الغرب على أنه نوعٌ من الاستقبال بالمعنى المزدوج للاستقبال؛ استقبالٌ بمعنى التلقّي والسعي إلى التفاعل البنّاء، واستقبالٌ بمعنى اتّخاذ المكان أو الجهة قبلةً، أي بالمعنى الذي يبرّر خضوع الكثير من نقدنا العربيّ لمقولات ونظريات ومناهج ليست مناسبة دائما أو بالشكل الذي استقبلت به، ولم تستوعب في الغالب كما ينبغي"(4).

يشير هذا التصريحُ إلى أنّ واقعنا الثقافي العربي يشهد حضور تيارين متصادمين: تيارٌ يدعو إلى الاندماج التامّ والكلّي في ثقافة الغرب من خلال التأثّر به والأخذ عنه بل الذوبان فيه، وتيارٌ آخر يدعو إلى الحوار مع الآخر والتفاعل معه بدل الاعتصام بالذات والوقوف عند ثقافة الأصول. لذلك فإنّ الحضور الفعّال كان للتيّار الأوّل، التيّارُ الذي لا زال يسعى إلى هضم وتمثّل كلّ ما هو آت من الغرب، من دون حيرة أو انزعاج بما قد ينتاب ثقافتنا العربية وخصوصياتها من سوء التهالك على النظريات والمناهج الغربية والاستعجال في تمثلها، وذلك من دون استحضار واعٍ للموقف الفكري المؤسّس على الإيمان بحتمية وحيوية التفاعل والمثاقفة مع الآخر.

البنيويةُ هي الوجهُ الآخر للغرب، فهي تعبّر عن مدى التناقض الذي يحمله الفكرُ الغربي في أعماقه، أي أنها تعبّر عن المفارقة التي تنطوي عليها الثقافةُ الغربية المتمركزةُ حول نفسها، "أو قل انغلاق للعقل الغربي وتمركزه حول ذاته، فهو لا يؤمنُ بغير مرجعيته الفكرية - التي ورثها من الإغريق قديما إلى أوربا حديثا - مرشداً ومعينا في البحث، وهو العقل الذي لا يكاد يقف عند منهج في التفكير إلاّ أعلن الثورة عليه وأزاحه، مُعلناً ميلاد مشروع بديل، وهو إذ يفعل ذلك يرومُ المحافظة على ديمومته ومركزيته. وما البنيويةُ إلاّ جزء من أجزاء المعادلة، يتوسّلُ بها -في البدء- كمنهج للاكتشاف وطريقة في البحث والمعاينة ثم تزاح، بل أنها تعلن بنفسها عن البديل، أي تخرجُهُ من عباءتها ليكون حضورُهُ سبباً في غيابها وتواريها إلى غير رجعة، جريا على سنن الطبيعة"(5).

وما تجدر الإشارة إليه، أننا قليلا ما نتساءل عن حقيقة الغرب أو عن حقيقة التمخّضات التاريخية الخاصة بالآخر، فما هو الغرب؟ وما هي أوروبا؟ وما الذي يعنيه هذان المفهومان المتلازمان؟.

يقول الدكتور عبد الله إبراهيم: "يتعذّر بالضبط تحديد اللحظة التي وُلد فيها مفهومان متلازمان هما: (أوروبا والغرب)، والواقع أنهما من تمخّضات تلك الحقبة الطويلة والمنقلبة، التي طوّرت جملة من العناصر الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية، فاندمجت لتشكل (هوية أوروبا)، وبانتهاء تلك الحقبة ظهر إلى العيان مفهوم "الغرب" بإبعاده الدلالية الأولية، وسرعان ما ركب من المفهومين المذكورين مفهوم جديد هو (أوروبا الغربية)... "[6].

إنّ العصر الوسيط أو عصر الظلام -كما يسميه بعض النقاد- هو الذي أفرزت لنا مفهوم الغرب وهوية أوروبا، وباندماج هذين المفهومين ركب ما يعرف الآن بأوروبا الغربية، مع أنّ هذا المفهوم الجديد ذو الدلالات المتموّجة – بتغيير الدكتور عبد الله إبراهيم- لا يقصد منه الرقعة الجغرافية لأوروبا، وإنما يدلّ على مجموعة من الصفات والخصائص العرقية والحضارية والدينية على أنها ركائز قارّة تشكّل أُسُس هويته، وأدّى هذا بدوره إلى بروز مفهوم حديث هو **المركزية الغربية.** فما الذي يعنيه إذن مفهوم المركزية الغربية؟ .

قد يبدو هذا المفهوم مبهماً في بداية الأمر؛ لأنّ كلمة مركزية Egocentricity كثيرا ما نجدها في الدراسات النفسية تتّصل بعالم الطفولة؛ فالطفلُ يعيش في مرحلة من مراحل نموّه أنانية مفرطة تجعله يركّزُ كل شيء في أناه؛ لأنّ وجدانه لا يتفتّح على الآخرين إلاّ بالمقدار الذي يجعلهم فيه مجموعة من العناصر التي تقع في منطقة تملكه أو استملاكه[7].

وهذه هي حقيقة الغرب الذي يرى نفسه الجوهر الوحيد في العالم، والمورد الذي لا ينضب، وكلّ الثقافات الأخرى أعراض. وكما يقول الدكتور سمير أمين، فالمركزية الغربية "قد قامت على افتراض وجود مسالك تطوّر خاصة لمختلف الشعوب، لا يمكن إرجاعها إلى فعل قوانين عامّة تنطبق على الجميع محاكاة للنمط الغربي، بوصفه الأسلوب الفعّال والوحيد لمواجهة تحدّيات العصر"[8] .

والغرب - كما ذكرت سالفا - قد قام بتثبيت بعض العناصر والخصائص العرقية والدينية والحضارية على أنها ركائز لتشكّل أُسُس هويته، لأجل ذلك صنع جذورا خاصّة به، وجعلها المرجعية الأساسية لتحديد أهمية كل شيء وقيمته، في حين يؤكّد المفكر والفيلسوف الفرنسي "روجيه غارودي" في أكثر من مناسبة: أنّ كلمة الغرب "كلمة رهيبة" عندما قال: "الغربُ عرض، وثقافته شوهاء، لأنها انعزلتْ عن أبعاد جوهرية، وهي

تدّعي منذ قرون تحديد ذاتيتها بتراث مزدوج: إغريقي - روماني، ويهودي- نصراني، وقد ظهرت أسطورة "المعجزة الإغريقية" في الغرب، لأنها عنده عمدة جذور حضارته الشرقية"(9).

قد نستغرب الأمر بداية، كيف أنّ مفكّرا بحجم "غارودي" تدفعه الدوافعُ والحيثياتُ إلى إصدار هذا الحكم، لكن ستتوقفُ دهشتُنا إذا فهمنا موقعه إزاءَ قضية التمركز الغربي، التي يرى فيها نوعا من الاعتزال الجوهري عن أصول حقيقية له والادّعاء بالانتماء إلى تراث إغريقي فــ" وجهة نظر غرودي تتمثّل في أنّ أصول الغرب يجب البحث عنها في بلاد الرافدين ومصر، أي في آسيا وإفريقيا، لأنّ هذه المراكز الحضارية هي التي غذّت كلّ الحضارات اللاّحقة بتصوراتها وأفكارها"(10).

هكذا يرفضُ غارودي فكرة الأصل الإغريقي الخالص للحضارة الغربية، هذا الأصل الذي ابتدعهُ الغربُ من أجل تحديد أهمية كلّ شيء وقيمته وإحالة الآخر إلى مكوّن هامشي، لا قيمة له، إلاّ إذا نهل من فيض عطاء الغرب وكريم فضله. يقول غارودي: "إنّ الغرب يعتبر خلال ألف سنة مضتْ أكبر مجرم في التاريخ، إنه اليوم، وبالنظر إلى سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية - بلا مزاحم- يفرض على العالم كلّه نموذجه التنموي الذي يؤدي -في الوقت ذاته- إلى انتحار عامي؛ لأنه يؤكّد تفاوتات متصاعدة، ويسلب المعوزين كلّ رجاء، وينضج انتفاضات اليأس، في الوقت الذي يضع معادل خمسة أطنان من المتفجرات على رأس كل ساكن في هذا الكوكب"(11).

فما يهدف إليه النمط الغربي - حسب غارودي - هو جمع العالم الإنساني كله تحت سماء واحد، أي مجتمع واحد كبير ومترامي الأطراف ومحاولة السيطرة عليه وفرض نظامها عليه.

الخاتمة

وما أريد قوله - والحال هذه- أنّ البنيوية ما هي إلاّ الوجهُ الآخرُ للغرب، ما دام أنّ النسق الذي يؤسّس البنيوية يبقى ثابتاً ثباتَ النسق (النموذج التنموي) الاقتصادي والسياسي والثقافي، بل (العامي والشامل) الذي يدعو إليه النمطُ الغربيُ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أجدُ أنّ تنحّي البنيوية عن مكانها لتحلّ محلّها نظريات "ما بعد البنيوية" يعني أنّ البنيوية قد زالت كمنهج، إمّا لأنها بلغت الذروة التي أرغمتها على التنحّي تلقائيا من مكانها ليحلّ محلها منهجٌ نقديٌ جديدٌ، أو أن تعترف بالعودة إلى ذاتها.

وهذا ما حاول الدكتور شكري عياد التعبير عنه في محاولة نقده البنيوية، أو بالأحرى نقد التناقض الذي يحمله منهجها قائلا: "ولعلّ التناقض الأساسي في البنيوية هو التناقض الأساسي في هذه الحضارة نفسها، حيث نجد سعياً مستمرّاً لتحويل كلّ عمل من أعمال الإنسان إلى نظامٍ آليٍ يقوم به الكمبيوتر، وفي مقابل ذلك انهيارٌ لكلّ الضوابط التي كانت إلى عهد قريب تضبط سلوك الإنسان نفسه. ويتمثل ذلك في البنيوية التي حاولت أن تقنن الأدب كنظام عقلي مجرّد، ولكنها اصطدمتْ بالأدب كإنتاج يعبّر عن حالة نفسية لإنسان العصر"(12).

إذن البنيويةُ تعبّر عن مدى التناقض الذي يحمله الفكرُ الغربيُ في أعماقه، أي أنها تعبّر عن المفارقة التي تنطوي عليها الثقافةُ الغربيةُ المتمركزةُ حول نفسها، والتي عملت على إزاحة الإنسان من قاموسها الدّلالي (العلمي والفلسفي) ليحلّ محلّه الإنسان الآلي **Robot**.

فالبنيويةُ ليست مجرّد منهج للبحث عن الإنسان في العلوم الطبيعية والإنسانية؛ لأنها أزاحَتهُ من طريقها وعوّضتْهُ بمجموعة من الأنساق أو الأنظمة ذات البنى الثابتة، التي أسكتَتهُ وصارت الناطق باسمه، والمعبّر الوحيد عنه بأوجه متعدّدة منها: الأيديولوجي، والسيكولوجي، والاقتصادي... وبذلك أصبحت البنيويةُ عبارة عن مذهب متماسك الأطراف، قد يصفُهُ البعضُ بأنه علميٌ نظرا لاعتماده على نظرية وعملية بحتة، وقد يصفه البعضُ الآخرُ بأنه فلسفيٌ لاشتماله على نظرية منظمة عن الإنسان والعالم. لكن أمر البحث والاستمتاع قد توقف بالبنيوية أخيرا عند الأدب الذي لم يرى فيها سوى نظرية وليست منهجا أو أداة عملية.

يقول جورج واطسن: "لقد كانت البنيويةُ بالنسبة للأدب دائما نظرية و لم تكن أداة عملية، فهي كما يقول أحدُ المعجبينَ بها: ليست منهجا لإيجاد تغييرات جديدة ومدهشة للأعمال الأدبية، وإنما هي بابٌ من التفكير يتساءل: كيف يمكننا الوصول إلى دلالات الأعمال الأدبية؟. ومع ذلك فمزاعم البنيوية عظيمة جدًّا، إذ كانت تدّعي أنها تفسّرُ جميع

الحقائق البشرية، أو على الأصحّ أنها على وشك تفسير كلّ شيء. وكان هذا هو سرّ جاذبيتها "[13].

وفي اعتقادي، أنّ الوصفة الموضوعية المجرّدة التي سقطت في جوفها البنيويةُ نتيجةَ اعتمادها "النموذج اللساني" الواحد، ومحاولة تطبيقه على مختلف مستويات البحث في حقولها المعرضية – بما فيها الأدب- هي التي جعلت البنيويةَ، وكذلك مختلف المعارف والدراسات، من أن تفقد خصوصيتها وتوهّجها، عندما أصبحت نتائجُ التحليل فيها تتطابق، مهما اختلفت حقولها، وتعلن عن إفلاسها في نهاية الستينيات.

الهوامش

1- عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر- مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط(02)، الدار البيضاء، المغرب، 1996م، ص.05.

2- عبد السلام المسدّي، قضية البنيوية - دراسة ونماذج -، دار أميّة للنشر، ط(01)، تونس، ص:23.

(*) المطابقة: تبعية الثقافة العربية وولائيتها لثقافة الآخر، أكثر من انصرافها إلى واقعها التاريخي، وعكسها ثقافة الاختلاف: وهي دعوة إلى صُنع ذات هي مجموع ذوات كفؤة وقادرة على إنتاج الفعل، والتفاعل مع الآخر على نفس المستوى من المقدرة والإمكانية، ينظر: عبد الله ابراهيم،المطابقة والاختلاف: المركزية الغربية (إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات)، المركز الثقافي العربي، ط(01)، الدار البيضاء،المغرب، 1997م، ص:05 وما بعدها.

3- ينظر: المرجع نفسه،ص:09.

4- سعد البازغي، استقبال الآخر-الغرب في النقد العربي الحديث-، المركز الثقافي العربي، ط(01)، بيروت، لبنان ،2004م، ص:05.

5- عبد الغني بارة، المبرّز، بوزريعة-الجزائر، فيفري2002 ،ص:126.

6- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف(مر.س)، ص:13 .

7- ينظر: المرجع نفسه، ص:14،13 .

8- سمير أمين، نحو نظرية للثقافة، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان(د/ط).

(*) عَرَضٌ: أي طارئة، وليست أصلية، ينظر: روجيه غارودي،"وعود الإسلام"، ترجمة: مهدي زغيب، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط(01)، بيروت- لبنان، 1984، ص.13).

9- المرجع نفسه، ص: 13.

10- عبدالله إبراهيم، المطابقة والاختلاف (مر.س)، ص:23.

11- روجيه غارودي، "وعود الإسلام" (مر.س)، ص:22.

12- سعد البازغي، "استقبال الآخر - الغرب في النقد العربي الحديث- (مر.س)، ص:177.

13- عبد السلام المسدي، قضية البنيوية - دراسة ونماذج - (مر.س)، ص:124.